الاستعمار الحديث

فهم طبيعة العداء وخلفياته

د. همام سعيد

الاستعمار الحديث

فهم طبيعة العداء وخلفياته

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

فيخطئ من يتوهم أن العداء بين الغرب الصليبي، أو الاستعمار الحديث، وبين المسلمين إنما يرجع إلى مرحلة قريبة من الزمان، أو ناتج أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أو سببته أطماع الغربيين في ثروات المسلمين بعد اكتشاف النفط بذلك المخزون الهائل، أو رغبة في تقاسم النفوذ بين الكبار، ليأخذ كل منهم حصته من هذه الكعكة الملقاة على قارعة الطريق الدولي.

ولما كان القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ هما المرجع في تصور المسلم للأحداث وفهمه لمجرياتها، فإنه لا بد من الأخذ من هذا المعين الذي يحدد العلاقات بين المسلمين وغيرهم في سياق واحد لا يتخلف، فقد بين لنا القرآن الكريم أن موقف الصليبيين من أمة الإسلام لن يتغير، ونقصد هنا الأنظمة والحكومات أكثر مما نقصد الشعوب والأفراد، فالله تبارك وتعالى يقول لنبيه ﷺ: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ

تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة: ١٢٠]، ويقول: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟} [البقرة: ٢١٧]، ويقول: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟} [المائدة: ٨٢]. ويقول: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ} [التوبة: ٣٢]. ويقول: {وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ} [البروج: ٨].

هذه الآيات تؤكد أن العلاقة من جهة اليهود والنصارى هي علاقة عداء دائم للمسلمين، ونؤكد على عبارة: من جهتهم، لأن النص القرآني يؤكد هذه الجهة بقوله: {وَلَن تَرْضَىٰ}، وبقوله: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ}، وبقوله: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً}، وبقوله: {وَمَا نَقَمُوا۟}، وبقوله: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟} وهذا يؤكد أن العلاقة من جهة المسلمين هي في الأصل علاقة دعوة ورغبة في تقديم الخير لهؤلاء، وهذا الفهم لا يحمّل المسلمين مسؤولية هذا العداء، بل يتحمله الطرف الآخر، وأكبر دليل على صدق هذا الفهم سلوك المسلمين نحو هؤلاء وسلوكهم نحو المسلمين، حيث لم يذكر التاريخ أن المسلمين سفكوا دماء هؤلاء أو ارتكبوا مجازر مع هذه الشعوب أو استعمروا بلادهم للاستحواذ على خيراتها والاستبداد في شؤونها، وحرمانهم من حقوقهم الإنسانية، بينما نجد التاريخ حافلا بمجازر الصليبيين ضد المسلمين، الذين لم يكونوا يفرقون بين الصغير والكبير، ولا بين الرجل والمرأة، وكانوا وما زالوا

يمارسون أسوأ أنواع الطغيان والاستبداد مع المسلمين، وقد شهد بهذا مؤرخو الغرب وكتابه، أمثال: غوستاف لوبون وتوماس آرنولد، والمؤرخ اليهودي روث.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن علاقة العداء بين العالم الغربي والمسلمين في العصورالحديثة أن نحدد الأطراف المحركة لهذا العداء فكثيرا ما يقال: إن اليهودية والصهيونية هي المحرك لهذه الحملات العدائية وهذا الظلم الصارخ، وأن اليهود بما لهم من ثقل اقتصادي وسياسي هم وراء جميع المصائب التي حلت بالمسلمين، وهم الذين يسخرون الشعوب الغربية والأمريكان لمصالحهم، وينبني على هذه الفكرة أن الصراع لا يتوقف إلا بانتهاء الدور اليهودي المسيطر على الغرب ومؤسساته، ولقد أصبحت هذه الفكرة ثابتا من ثوابت الفكر العربي في هذا الزمان، وكثيرا ما تطرح فكرة تعظيم النفوذ العربي في الغرب مقابل النفوذ اليهودي حتى يكون للعرب تجمع (لوبي) يتغلب في السياسة الأمريكية بخاصة والغربية بعامّة على اللوبي اليهودي. ويلزم من هذه الفكرة أن يكون العداء مع الصليبية عداء طارئاً، أو ما يسمى عداءً لغيره وليس عداءً لذاته.

ومع أنه لا ينكر الدور اليهودي الحاقد في هذه المعركة إلا أن الدور الصليبي الغربي هو الأطول والأعنف، والحقائق التاريخية تؤكد أن الحقد الصليبي على المسلمين هو حقد ذاتي، وهو المحرك الرئيس لغيره من الأحقاد، وأن اليهود برغم عداوتهم الأشد، فإنما هم مخلب من مخالب

هذا الحقد ووسيلة من وسائله وأداة من أدواته، إذ أن عداوة الصليبيين للمسلمين بدأت منذ عهد الرسالة واستمرت على مدى التاريخ وكان لها جولات كثيرة وطويلة من الحروب وسفك الدماء، سواء في أطراف الدولة الإسلامية أو في قلبها، حيث وصل الأمر إلى احتلال فلسطين وبلاد الشام وأجزاء من مصر وتهديد المدينة ومكة لمدة قاربت مئتي عام خلال الحروب الصليبية التي سبقت الغزو المغولي والتتري لبلاد المسلمين. وكانت ممارسات الصليبيين مع المسلمين استئصالية كلما حدث في الأندلس.

وأما في القرون الحديثة فما زلنا نعيش حالة الهجمة الاستعمارية الطاغية ونرى بعيوننا شلال الدم المتصبب من أمة الإسلام، كما نرى استحواذ هؤلاء الغربيين على كثير من بلاد المسلمين، وما هذه الجيوش الغربية المترسة في بحارنا وبلادنا وأجوائنا إلا دليل صارخ على أحقاد لا حد لها ولا نهاية.

وليس احتلال اليهود لجزء عزيز من أرض المسلمين وجعل هذا الجزء خنجرا في قلب العالم الإسلامي يمنع الاتصال بين مشرقه ومغربه إلا جزءاً من تدبير خبيث دام عدة قرون من الكيد الصليبي للعالم الإسلامي، ويخطئ من يظن أن أهداف هذا الاحتلال في نظر المخططين له إنما هي إعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، أو حل المشكلة اليهودية المزمنة التي صنع الغربيون منها مشكلة منذ سنة سبعين ق.م، وحتى أوائل القرن التاسع عشر، أو أن يكون هدفهم من زرع هذا

الكيان الاستعانة به لتثبيت وجودهم على هذه الأرض، وكذلك فالهدف من هذا الاحتلال لم يكن فلسطين وشعبها على وجه الخصوص. وكذلك ما نراه من كون القضية الإسلامية هي الأكثر إلحاحاً في الذهن الغربي، لتلك الأسباب وغيرها جاء اختيار هذا العدوالأشدّ ليغتصب هذا الموقع الجغرافي الأعز في هذا الزمن التاريخي وزرع هذا الجسم الغريب، الذي يفصل جسم العالم الإسلامي شرقيه عن غربيه، ويفتح فيه خراجات دامية تستنزف قدراته، وتشغله عن المحتل الآخر، ثم لا يجد هذا العالم الأسلامي المسكين مناصاً من اللجوء إلى الغربيين الذين هم سبب دائه بالبكاء والعويل والاستعانة بهم والاعتماد عليهم، وطلب الإنصاف منهم!!!

إن تاريخ الاستعمار الحديث يحمل في طياته الكثير من الشواهد على أن زرع دولة يهودية في بلاد المسلمين هو أحد وجوه الاستعمار وجوانبه، فإذ أخذ هذا الاستعمار شكل الاحتلال المباشر في المغرب العربي وسوريا ولبنان من الفرنسيين، وفي ليبيا من الطليان، وفي مصر والأردن والعراق وفلسطين من الانجليز، وأخذ شكل السيطرة على منابع البترول والمعابر المائية والشواطئ البحرية، واستخدم أسلوب التغريب الثقافي ونشر القيم الغربية في بلاد المسلمين وإحياء الحضارات السابقة كالفرعونية والفنيقية والأشورية والبابلية، فقد كان احتلال اليهود لفلسطين أحد هذه الجوانب الاستعمارية، بل هو أخطرها

وأعظمها أثرا، حيث لم ينتج العقل الغربي الحاقد أسوأ من هذه الفكرة الاستعمارية.

لقد بدأت فكرة زرع الكيان اليهودي في فلسطين، تلوح في الأفق، بعد ظهور حركة الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر في أوروبا، حيث بدأ أصحاب المذهب البروتستانتي الجديد بترويج فكرة تقضي بأن اليهود ليسوا جزءاً من النسيج الحضاري الغربي، لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات، وإنما هم شعب الله المختار، وطنهم المقدس فلسطين، يجب أن يعودوا إليه .وكانت أولى الدعوات لتحقيق هذه الفكرة ما قام به التاجر الدنماركي أوليغربولي Oliger poulli عام ١٦٩٥، الذي أعد خطة لتوطين اليهود في فلسطين، وقام بتسليمها إلى ملوك أوروبا في ذلك الوقت. (انظر: خالد عابد، التوسعية الصهيونية «إسرائيل الكبرى»ص٥٤٣). وفي عام ١٧٩٩ كان الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت أول زعيم دولة يقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين أثناء حملته الشهيرة على مصر وسوريا .حيث وجه نابليون خطابا إلى اليهود أثناء حصاره لمدينة عكا سنة ١٧٩٩ قائلاً:

«من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط. إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن

لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسر الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف. انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه. إن أمامكم حربا مهولة يخوضها شعبكم، بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم... لابد من نسيان ذلك العار، الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزى الذي شل إرادتكم لألفي سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلي عن حقكم . ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقرا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تعد تُرهب مدينة داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين.

إن الأمة الفرنسية التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها. تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء. انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفًا لأسبارطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تفلح في قتل هذه الشجاعة. سارعوا! إن هذه

هي اللحظة المناسبة - التي قد لا تتكرر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم» (انظر محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، القاهرة، ١٩٩٦م،ج١ ص٣١-٣٢).

ثم استلمت هذه المهمة الدولة البريطانية ابتداء من محاولة إقناع السلطان العثماني بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر إلى أن أصدر بلفور وعده المشؤوم بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، وما تبع ذلك من تواطؤ الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا لتنفيذ هذا الوعد على أرض الواقع، حيث بدأت الإجراءات الفعلية من خلال ما يسمى بالانتداب البريطاني على فلسطين والأردن، والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، ثم فتح باب الهجرة على مصراعيه، وتأييده بالدعم الدولي والاعتراف الأممي، وفي الوقت الذي لم يكن بيد اليهود ما لا يزيد عن ٦٪ من أرض فلسطين كان قرار هيئة الأمم عام ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين لتكون حصة اليهود منها ٥٤٪. يضاف إلى ذلك حرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه السياسية، وتحويله إلى مجموعة من الطوائف التي لا يعترف لها بشيء سوى بعض الحقوق الدينية والمدنية، لتصبح البقية الباقية من أهل فلسطين سكانا لا مواطنين على أرضهم.

ثم استلمت زعامة هذا الإفك والطغيان الولايات المتحدة الأمريكية التي حرصت على دعم هذا الكيان بالمال والسلاح والرجال والقرارات الدولية وحق النقض (الفيتو)، حيث لم يستعمل هذا الحق كما استعمل لصالح اليهود.

إن هذا التنوع في خدمة المشروع اليهودي على أرض فلسطين سواء بالدول الداعمة أو بالمشاريع المقدمة على امتداد هذه السنوات الطويلة يؤكد أمرا واحدا وهو أن المشروع اليهودي لا يعدو أن يكون أداة من أدوات الاستعمار الصليبي لبلاد المسلمين.

إن معركة هذه الأمة اليوم مع اليهودية والصليبية إنما هي حلقة من حلقات المعركة الطويلة مع الروم، فليس الروم أمة بادت وغادرت التاريخ، ولم يبق لها ذكر بين الإمبراطوريات والدول، ولا يعني تغير أسماء الدول والمجتمعات الغربية من الدولة الرومانية إلى بريطانيا أو فرنسا أو إسبانيا، ولا تسميتها بالاتحاد الأوروبي أو الولايات المتحدة أنها خرجت عن حقيقة الدولة الرومانية ووظيفتها.

لقد بين لنا نبينا صلى الله عليه وسلم نوعية الصراع الطويل مع الروم، فقد أخرج مسلم (حديث ٢٩٠٠) عن نافع بن عتبة، عن النبي ﷺ، قال: «**تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله، ثم فارس، فيفتحها الله، ثم تغزون الروم، فيفتحها الله، ثم تغزون الدّجال، فيفتحه الله. قال: فقال نافع: يا جابر! لا نرى الدّجال يخرج حتى تُفتح الروم**».

إن هذا الحديث يكشف عن مجمل الصراع بين الأمة الإسلامية وأعدائها، ابتداء من المشركين في جزيرة العرب إلى أن يقتل الدجال، ويكشف الحديث عن طول فترات الصراع مع كل عدو من هؤلاء الأعداء، ويبين الحديث كما هو الواقع أن ثلاثة من هؤلاء الأعداء ينتهون بجولة أو جولتين، وأن الروم من بين هؤلاء الأعداء وحدهم تميزوا بطول زمان حربهم مع المسلمين، وكثرة المعارك معهم، والواقع التاريخي يشهد على هذا، إذ لم يعرف التاريخ البشري صراعاً مضى عليه الف وأربعمائة عام، وما زال هذا الصراع جذعاً، تزداد ناره اشتعالاً، سوى هذه الحرب. ولهذا الحديث شواهد أخرى منها ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم ١٩٣٤٢ والحارث في مسنده برقم ٧٠٢ عن ابن محيريز، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها أبدا، والروم ذات القرون، كلما هلك قرن خلف مكانه قرن، أهل صخر وأهل بحر، هيهات لآخر الدهر، هم أصحابكم ما كان في العيش خير**».

إن هذا العدو القديم الجديد الذي يقف في وجه الأمة اليوم، ويحتل أعز بقاعها، ويأخذ بخناقها من كل جانب، ويرتكب بحقها أبشع المجازر والجرائم، وينتهك حرمة ربها ونبيها وقرآنها ومقدساتها هو العدو نفسه الذي خاض المعارك المتواصلة ابتداء من غزوة مؤتة مرورا بمعركة اليرموك ومعارك الشام الأخرى والمعارك مع الدولة البيزنطية، ثم الحروب الصليبية، ثم فتح القسطنطينية، ثم الحروب داخل أوروبا، ثم

الغزو الاستعماري الحديث لبلاد المسلمين، بما في ذلك احتلال فلسطين والعراق وأفغانستان، ولم تتوقف هذه الحروب الاستعمارية عند حدود الاحتلال العسكري والسيطرة على الثروات وإنما شملت جميع شؤون الحياة في البلاد الإسلامية، بما في ذلك أنظمة الحكم ومناهج التعليم ونظام الأسرة وحقوق المرأة، وتعميم طرائق الحياة الغربية، ونشر الفلسفة المادية القائمة على المتع والشهوات، والبعد عن الحياة الإسلامية بما فيها من نظام للعقيدة والعبادة والمجتمع، وأصبح الإسلام مطاردا في بلاده من خلال شبهة الحرب على الإرهاب.

ويستفاد من هذه الأحاديث وغيرها أن أمة الإسلام تبقى في مواجهة الروم الذين يواصلون معاركهم معها حتى تأتي الملحمة الكبرى التي تكون فاصلة بين المسلمين وبين الروم، والجدير بالذكر أن هذه الملحمة معلومة عند المسلمين واليهود والنصارى وإن كان كل فريق يقرأ هذه الملحمة بمقتضى عقيدته، والمسلم يعتقد أن الحق ما جاء به رسول الله ﷺ، وقد جاء ذكر هذه الملحمة في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم رقم: (٢٨٩٩): عن يسير بن جابر، قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل ليس له هجيرى (أي: صوت عال) إلا ياعبد الله بن مسعود جاءت الساعة، قال فقعد، وكان متكئًا، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده: هكذا (ونحاها نحو الشام) فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال نعم! وتكون عند ذاكم القتال ردة

شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة - إما قال: لا يرى مثلها وإما قال: لم ير مثلها - حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتا، فيتعادّ بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**».

وأخرج مسلم (حديث ٢٨٩٧) عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ، قال: «**لا تقوم الساعة حتى يَنزل الروم بالأعماق، أو بدابق. فيَخرج إليهم جيشٌ من المدينة، من خِيار أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصافّوا قالت الروم: خلّوا بيننا وبين الذين سَبَوا منّا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا،**

والله! لا نخلّي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فيَنهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتَل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويَفتتح الثلث. لا يُفتَنون أبداً. فيَفتتحون قسطنطينيّة، فبينما هم يَقتسمون الغنائم، قد عَلّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إنّ المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيَخرجون، وذلك باطلٌ. فإذا جاؤا الشّأم خرج. فبينما هم يُعِدّون للقتال، يُسَوّون الصّفوف، إذ أُقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمَّهم فإذا رآه عدوّ الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء. فلو تركه لانْذاب حتى يهلِك. ولكن يقتله الله بيده، فيُريهم دمه في حربته».

وأخرج أبو داود (حديث٤٢٩٢) عن ذي مِخْبَر رجُل من أصحاب النبيّ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «ستُصالحون الرومَ صُلحاً آمِناً، فتغزون أنتم وهم عدوّاً من ورائكم، فتُنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلولٍ، فيرفع رجُلٌ من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليبُ، فيغضب رجُل من المسلمين فيدقّه، فعند ذلك تَغدر الرومُ، وتجمع للملحمة».

إن الفكر الصليبي الاستعماري يدور منذ ما يزيد على أربعة قرون على أن شرط مجيء المسيح مرة أخرى وفق التصور النصراني لا يمكن أن يتحقق إلا إذا قامت دولة يهودية على أرض فلسطين، وتم بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وعندئذ تكون معركة (هرمجدون) التي يقتل فيها ملايين البشر، ولا يبقى من اليهود إلا فئة قليلة، حيث يعتنقون النصرانية. وليس هذا الفكر فكر جماعة قليلة لا شأن لها في

صناعة الأحداث، بل هو فكر الإنجيليين الجدد الذين يزيد عددهم في الولايات المتحدة وحدها على ٤٠ مليونا ولهم إعلام مسيطر على الرأي العام الأمريكي، حيث تعمل في خدمتهم ألوف المحطات التلفزيونية والإذاعية، التي تبشر ليل نهار بقرب معركة هرمجدون.

(... يعتقدون أن كارثة نووية فقط يمكن أن تعيد المسيح إلى الأرض، إن هذه الرسالة تبث عبر ١٤٠٠ محطة دينية في أمريكا، ومن بين ٨٠٠٠٠ قسيس إنجيلي يذيعون يوميا من خلال ٤٠٠ محطة راديو، فإن الأكثرية الساحقة منهم من التدبيريين" أي الذين يعتقدون هذه العقيدة وينتظرون حدوثها ويجدون في دعم دولة اليهود بكل ما تحتاج إليه من أسباب القوة هو الطريق الموصل إلى هذه النبوءة). (انظر: النبوءة والسياسة، ص٣١).

يقول د. سفر الحوالي في محاضرة له بعنوان: القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى: (اسمعوا ماذا يقول دعاة الأصولية الإنجيلية. يقول بات روبرتسون: (كنت أتمنى أن أستطيع القول إننا سنحصل على السلام ولكني أؤمن بأن معركة هرمجدون -مقبلة - إن هرمجدون قادمة وسيصب غمارها في وادي فريدون، إنها قائمة، إنهم يستطيعون أن يوقعوا على اتفاقيات السلام التي يريدون، إن ذلك لن يحقق شيئًا، هناك أيام سوداء قاتمة) ويضيف: (إنني لا أخطط لولوج جهنم قادمة إن الله سوف يهبط من عليائه يا إلهي إنني سعيد من أجل ذلك إنه قادم ثانية)، نقلاً عن النبوءة والسياسة: ٣٧.

وتقول مؤلفة كتاب (النبوءة والسياسة): (إن الأربعين مليون إنجيلي أصولي يؤمنون بقوة أن الله نفسه يريد أن تحصل (إسرائيل) على أي جزء من الأراضي العربية وعلى كل الأراضي العربية التي تتمكن من مصادرتها) وكما يقولون: (إننا نحن المسيحيين نؤخر وصول المسيح من خلال عدم مساعدة اليهود على مصادرة مزيد من الأراضي). ولهذا يفتتح اليهود مزيدًا من المستوطنات الجديدة في الضفة والجولان حتى إبان انعقاد المؤتمر، ومن ورائهم الأصوليون الإنجيليون في أمريكا الذين يقولون: (إن أي أحد يعترض على شيء من ذلك - أي على استحداث المستوطنات - إنما يؤخر عودة المسيح أو يساهم في هذا التأخير). من محاضرة الكترونية.

ويقول د. خالد بن محمد الغيث في مقال له بموقع (altareekh.com):

إن قيام الدولة اليهودية في نظر الأمم البروتستانتية، يعد تحقيقاً لأهم وأخطر نبوءة في كتبهم المحرفة ألا وهي نبوءة (الألفية السعيدة) ومختصر تلك النبوءة يدور حول عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض ليحكم العالم مدة (ألف سنة) تعم فيها السعادة وينتشر فيها الخير، لكن تلك العودة مشروطة بقيام الدولة اليهودية في فلسطين، وعاصمتها القدس، وبناء الهيكل مكان المسجد الأقصى، وبقيام معركة (مجدّو) أو (هرمجدّو) والتي سيتم فيها القضاء على كل الأشرار الذين سوف يحاولون عرقلة العد التنازلي للألفية السعيدة، لذا فإن من يحاول عرقلة العد التنازلي لهذه النبوءة، سيدخل تلقائياً في نادي الأشرار، وهذا يعني أن الأمة

المسلمة، في نظر عشاق تلك النبوءة، تعد عضواً مؤسساً في ذلك النادي. وعن تلك النبوءة تقول الكاتبة الأمريكية (جريس هالسل) في كتابها:(النبوءة والسياسة): (إننا نؤمن كمسيحيين أن تاريخ الإنسانية سوف ينتهي بمعركة تدعى (هرمجدون)، وأن هذه المعركة سوف تتوج بعودة المسيح، الذي سيحكم بعودته على الجميع، وأن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الله أعطى الأرض المقدسة إلى شعبه المختار اليهود، ولأن اليهود هم شعبه المختار، فإن الله يبارك الذين يباركون اليهود، ويلعن لاعنيهم. نقلاً عن (النبوؤة والسياسة ص١٣) ويقول القس الأمريكي (جورج أوتيس): (نحن نؤمن بأرض إسرائيل، كما نؤمن بأن كل الأرض المقدسة، هي ميراث الشعب اليهودي، غير القابل للنقل أو التصرف، وهو الوعد الذي أعطي إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولم يلغ قط، كما أن إنشاء إسرائيل الحديثة هو إيفاء لا ينازع للنبوءة التوراتية، ورؤى النذير بمقدم المسيح، إننا نعتقد أن اليهود في أي مكان، ما زالوا هم شعب الله المختار). وعن قيام الدولة اليهودية يقول الرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر): (إن إنشاء دولة إسرائيل، هي إنجاز النبوءة التوراتية وجوهره، وقال أيضاً مخاطباً اليهود حين زار فلسطين في عام١٩٧٩م: (إننا نتقاسم معكم تراث التوراة) أما الرئيس الأمريكي السابق (ريغان) فقد كان مشغوفاً بتسريع خطوات العد التنازلي للألفية السعيدة، حيث قال: (إن إسرائيل هي الديمقراطية الثابتة الوحيدة التي

يمكن أن نعتمد عليها كموقع لحدوث (هرمجدو)، وقال أيضاً: إن جميع النبوءات التي يجب أن تتحقق قبل هرمجدو قد مرت.

إن هذه النصوص تظهر أن حمل اليهود إلى أرض فلسطين ليس حبا فيهم، ولا شفقة عليهم، بل لكونهم شرط حصول هذه التنبؤات، وبهذا نرجع إلى ما كنا قررناه ابتداء أن إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين إنما هو وسيلة صليبية غربية لإعنات المسلمين وتبديد طاقاتهم وتمزيق بلادهم وإشغالهم عن رسالتهم العظمى التي هي حمل الإسلام ونشره بين الناس.

أما العلاقة المستقبلية بين المسلمين والعالم الصليبي فهي مرشحة لمزيد من التوتر والحروب، وقد بينت السنة النبوية الكثير من جوانبها، وفي هذه العلاقة محطات كبرى أخبرت السنة عنها، منها حصار يفرضه الروم على الشام وعلى مصر وعلى العراق، فقد أخرج مسلم (حديث ٢٩١٣) عن أبي نضرة، قال: كنّا عند جابر بن عبد الله، فقال: يوشِك أهل العراق أن لا يُجبَى إليهم قَفيزٌ ولا درهمٌ، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَل العجم. يَمنعون ذاك. ثم قال: يوشِك أهل الشّأم أن لا يُجبَى إليهم دينارٌ ولا مُدْيٌ. قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَل الروم. ثم أَسكتَ هُنَيّةً، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر أمّتي خليفةٌ يَحثِي المال حَثْياً، لا يَعُدّه عدداً**».

كما تحدثت عن انحسار الفرات عن جبل من ذهب، وما يكون عنده من القتال، كما تحدثت السنة عن صلح يكون بين المسلمين والروم، ثم

عن غدر الروم بالمسلمين ثم مجيئهم تحت ثمانين راية، تحت كل راية منها مائة وعشرون ألفاً، وبذلك يكون الحشد العسكري ما يقارب مليونا من الجنود الصليبيين، وتكون الملحمة الكبرى التي جاء ذكرها بالحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم وغيره.

إن نهاية الصراع مع الروم يكون مع نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، والأخبار في نزوله متواترة عن رسول الله ﷺ، وعندئذ يقتل الدجال، فقد جاء في البخاري ٢٢٢٢ عن أبي هريرة: «**ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسرالصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية**».

وبالرغم من هذا العداء المستحكم بين المسلمين والصليبين إلا أن الواقع التاريخي يثبت فشو الإسلام فيهم، فقد تحولت بلاد كثيرة من النصرانية إلى الإسلام، أو أسلم أكثر أهلها، وكان لهؤلاء المسلمين الجدد دور عظيم في حمل الإسلام ونشره. ومن هذا ما نشاهده اليوم من إقبال الغربيين على الإسلام، وسيكون الإقبال أعظم، أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: **سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟** قالوا نعم يا رسول الله! قال: **لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها**. قال ثور: لا أعلمه إلا قال: **الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله**

إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون». (حديث رقم٢٩٢٠).

إن هؤلاء السبعين ألفاً المذكورين في الحديث ما هم إلا ممن سيسلم من جيوش الروم الذين سيغزون بلاد المسلمين، ثم يشاء الله تعالى لهم الهداية، ونأخذ هذا الفهم من حديث آخر أخرجه الإمام مسلم برقم (٢٨٩٧) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصادفوا قالت الروم خلّوا بيننا وبين الذين سُبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلِي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يفتنون أبدا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته**».

إن المعركة المذكورة في هذا الحديث هي الملحمة الكبرى، وهي من جهة الصليبيين

معركة هرمجون، ويكون سبب هذه المعركة من يسلم من الروم ويخوضون معركة القسطنطينية، فيقول الروم للمسلمين: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. وفي هذا التوفيق بين الحديثين نخرج من الخلاف بين شراح الحديث الذين قالوا بشذوذ رواية مسلم، وأن فيها خطأ من بعض الرواة، وقولهم: إن الصواب: بني إسماعيل.

الأمانة العامة للأوقاف
مجلة البيان
الإعمال الخيرية

التوصيات

تأكيد الدعوة إلى الأسلام في الغرب بمختلف الوسائل، ومن ذلك:

١- تكوين لجنة من كبار العلماء والدعاة من مختلف بلاد المسلمين تشرف على أعمال التبشير بالإسلام في الغرب.

٢- عقد مؤتمر متخصص لدراسة أولويات الدعوة الإسلامية في الغرب والسبل الناجعة في نشر الدعوة.

٣- تخصيص قنوات فضائية لدعوة الغربيين إلى الأسلام، أو على الأقل تخصيص ساعات بث للدعوة.

٤- إعداد الدعاة القادرين على مخاطبة الغرب وفق خطة يتوافر لها الدعم المالي والفني.

٥- تأليف كتب إسلامية تيسر فهم الإسلام بلغات الغربيين.

٦- استقطاب عدد من الشباب المسلم الغربي لإعدادهم الإعداد الجيد، وإعادتهم إلى بلادهم.

٧- توطين بعض الدعاة في بلاد الغرب ولاسيما أساتذة الجامعات.

٨- العناية الخاصة بترجمة القرآن الكريم وكتب السنة على أيدي لجان علمية شرعية.

٩- تقديم الحلول الإسلامية لمشكلات الغرب.